

الفصل الأول

الأسرة أهم مؤسسة في الحياة

الزواج سنة كونية محكمة البنيان وطيدة الأركان

إن الناظر في كتاب الله يجد آية الزواج قد جاءت فتوسطت آيات دالة على وحدانية الله وعظمته وآلائه على عباده، يقول ﷺ في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: 20].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَنزِلَاطِ وَالْوَنُكُرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: 23].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 25].

فسابق آية الزواج ولاحقها إن نظرت إليه بعين البصيرة وبالعين الباصرة علمت ما للزواج من صلة قوية بالكون الذي خلقه الله. وكأن الزواج قد صار سنة كونية محكمة البنيان وطيدة الأركان امتنَّ به الله على عباده، كما امتنَّ بنعمة خلق الإنسان، ونعمة خلق السموات والأرض، ونعمة اختلاف الألوان والألسنة، ونعمة النوم، ونعمة النهار للكدح والعمل، ونعمة الماء الذي جعله قواماً للحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، ونعمة قيام الساعة وبعث الناس للحساب والجزاء، وقد يقول سائل: وهل الموت والبعث بعد الموت نعمة يمتنُّ بها الله على عباده ويطلب منهم النظر في ذلك الأمر والاستعداد له؟! فأقول: نعم، هب أن الإنسان ظل طوال حياته مريضاً أو فقيراً أو مظلوماً وليس هناك حياة أخرى - ينتقل إليها بالموت - يعمل لها وينتظر ثمرة عمله واحتسابه وصبره على مرضه وفقره وهوانه على الناس، ماذا سيكون

حاله وما هي مشاعره؟ بالتأكيد إن حاله سيئة ومشاعره يائسة قانطة، ولو كان العيش في الدنيا هو كل شيء لكان الانتحار العاجل أولى بالناس أجمعين، وإن تلك الآيات قد لخصت حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مبدئه إلى منتهاه من الميلاد إلى البعث بعد الموت.

إن الزواج هو سبب التكاثر في الإنسان وفي غيره، والإنسان في هذه الحياة يقوم بعمارة الأرض وبوظيفة الخلافة وحمل الأمانة. وإن الحياة الزوجية هي مركز تجمع الحياة الدنيوية وجنة سعادتها وقلعتها الحصينة، وإن بيت كل إنسان هو عالمه الصغير ودنياه الخاصة. ولا سعادة في حياة الأسرة إلا بالسكن والمودة والرحمة التي تشيع من جنبات الحياة الزوجية مع صفات أخرى وخلال كريمة، ولا وجود لتلك الخصال الكريمة التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض إلا إذا تيقن الجميع بأن هذه العلاقات القوية الطيبة التي بين الأولاد والآباء وبين الإخوة وبين الزوجين لها أثر وامتداد إلى ما بعد الحياة الدنيا.

فهي علاقات عميقة الجذور بالغة الأهمية عظيمة الأثر بعيدة الآمال تعلو على الفناء. والدليل على ذلك:

إنه إذا ما انتهت هذه الحياة الدنيا وتركها أهلها

فرادى وجماعات، التأم شملهم مرة أخرى في الدار الآخرة على نحو ما كانوا عليه في الحياة الدنيا، من إيمان ووفاء بعهد الله وعدم نقض لميثاقه، وصلة لما أمر الله بأن يوصل وخشية لله وخوف من حسابه، وصبر على ما يجب الصبر عليه من الطاعات والمكاره، وصبر عن المعاصي، وإقام الصلاة، والإنفاق في السر والعلن، والدفع بالحسنة. يقول ﷺ في ذلك: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدُوا وَلَا يَقْضُونَ الْوَعْدَ﴾ (٢٠) ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (٢١) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٢) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) [الرعد: 20-23].

فها هي تلك الروابط والعلاقات ممتدة الآماد عظيمة الأثر تعلقو على الفناء، وفي سبيل جمع الشمل في الآخرة يلتحق الأبناء المقصرين بالآباء المجدين يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢١) [الطور: 21].

هذا شأن الأسرة المؤمنة بربها يبقى عقدها في النعيم المقيم، والأسر الأخرى يبقى عقدها كذلك فيما استحققت

من العذاب يقول سبحانه: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصفات: 22-23].

إنه حقاً لعجب أن تظل تلك الروابط والعلاقات التي بين أفراد الأسرة بعضهم ببعض موصولة قائمة إلى ما بعد الحياة الدنيا.

ولكن العجب ينقطع إذا فقهنا طبيعة الحياة الزوجية، وقمنا بها على الوجه الذي حدده الله ورسمه لنا في آياته الكريمة وسنة نبيه ﷺ.

ألم يقل سبحانه وتعالى في سورة البقرة عند البدء في ذكر آيات أحكام الأسرة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢١) [البقرة: 221].

فالشاهد هنا قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ - أي المشركين - ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾.

ثم لنقرأ سوياً ما جاء في آيات أحكام الأسرة التي

ذكرنا أولها آنفاً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223].

فالشاهد هنا قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223].

فالأمر هنا «وقدموا لأنفسكم» يفهم منه أن الزوجين مطلوب منهما أن يقدموا ما ينفعهما في مستقبل حياتهما سواء حياتهما الزوجية والأسرية في الدنيا، أو حياتهما الآخروية، وهو ما يفهم منه ضرورة حسن اختيار الزوج لزوجته، وحسن اختيار الزوجة لزوجها كما مر في قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾. ثم إن هما أحسنا الاختيار فليحرصا على النسل، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا بِشَرُّهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: 187]. فيستفاد من ذلك الدعوة إلى طلب الولد، وأن السبيل إلى ذلك هو الجماع الذي صار حلالاً بموجب عقد النكاح.

والحرص على النسل يستوجب الحرص على تعهده بالتربية الصالحة حتى يشب صالحاً وينتفع الآباء بعد موتهم بدعاء أولادهم الصالحين، وليحرص الزوجان كذلك على حسن معاشرة بعضهما البعض حتى يجدا ثمرة ما قدما من خير وعمل صالح في حياتهم الأسرية، تتمثل

في سكن واطمئنان ومودة ورحمة وحياة زوجية طيبة هائلة، وكذلك في المجتمع وفي الآخرة.

فمن أحسن العشرة فقد قدّم لنفسه وعمل في حاضره ما يكون ذخراً وعتاداً في مستقبله، سواء ما يخص حياته الأسرية والعامة، وما يخص مستقبله في الآخرة.

وعلى هذا يكون لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مُوا لِنَفْسِكُمْ﴾. معنى عام يشمل كل خير وعمل صالح يقوم به الإنسان، ومعنى خاص هو ما يتعلق بالعشرة الزوجية ورعاية الولد.

وأعود لأمعن النظر مع القارئ الكريم في آيات سورة الرعد - السابق ذكرها - فنجد ذكر إقام الصلاة مع آيات ذكرت دخول الجنة مع الآباء والأزواج والذرية (أفراد الأسرة)، وكذلك ذكر الوفاء بعهد الله وعدم نقض ميثاق الله وصلة ما أوجب الله صلته والإنفاق، كلها كلمات ومعاني لها ارتباط وثيق بأحكام الأسرة، فالنساء أخذهم الأزواج بأمانة الله واستحلوا فروجهن بكلمة الله، والنساء أخذن على الأزواج ميثاقاً غليظاً، والنساء لهن شروط قد تشترطنها على الأزواج عند العقد يلزم الوفاء بها، والرجال الأزواج ينفقون على الزوجات والأبناء: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34]. وفي الزواج صلة للأرحام.

وذكر إقامة الصلاة في سورة الرعد له ارتباط بآية:
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: 132].

وإننا لو اجدون آيات أمرت بالمحافظة على الصلاة في أوقات الأمن والسلم والخوف بين آيات أحكام الأسرة في سورة البقرة، كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: لئن كانت الصلاة لا تترك بحال سواء في السلم أو في أوقات الحرب، فإن الاهتمام بالحقوق التي افترضها الله على أفراد الأسرة تجاه بعضهم بعضاً لا تترك ولا تهمل، سواء كانت الحال في الحياة الزوجية والأسرية حال أمن وسعادة واطمئنان ودوام العشرة، أم كانت حال اضطراب وقلق وشقاء وانقطاع للعشرة.

وفي الصلاة تهذيب وتزكية للنفس واستكمال لفضائلها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [14-15] ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 14-15] والمحافظة على الصلاة حري به أن يحافظ على الميثاق الغليظ الذي أخذته زوجته عليه، وفي الصلاة استشعار لعظمة الله وهذا الاستشعار يمنع المقيم للصلاة من سوء عشرة أهله وظلمهم وتعد حدود الله معهم ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229] لذلك ناسب ورود الأمر بالمحافظة على الصلاة بين آيات أحكام الأسرة في سورة البقرة والله تعالى أعلم.

وإن ذكر الصلاة في مقام ذكر أحكام الأسرة لا يستغرب ولا يتعجب منه إذا علمنا أن الرسول ﷺ كان آخر ما قاله قبل موته عليه الصلاة والسلام الأمر بالصلاة والوصية بالنساء.

من هذا نعلم مدى أهمية الأسرة وعظيم مكانتها في تعاليم الدين، وأنها علاقات بالغة الأهمية عميقة الجذور عظيمة الأثر بعيدة الآماد تعلقو على الفناء كما أسلفنا القول في الصفحات السابقة.

ومن الأدلة على أهمية الأسرة وعظم قدر العلاقات والروابط التي تربط بين أفرادها أنها ما وردت آية تخص حياة الأسرة من مبدئها إلى منتهاها إلا صاحبها كلمة الخوف؛ ذلك لأن أمر الأسرة عظيم وقدرها جليل وتحظى بأهمية بالغة، ولقد اعتنى بها القرآن أيّ اعتناء، وفصل في أحكامها ما لم يفصله في الصلاة أو الزكاة أو الحج.

فعند إرادة الزوج نراه يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْبَیِّ فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنًى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةٌ﴾ [النساء: 3] فهذا هي كلمة الخوف تصاحب بداية الحياة الزوجية وأثناء العشرة الزوجية ترد كلمات الخوف ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ [النساء: 34].

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ [النساء:

128].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ
وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35].

وكذلك عند انقطاع العشرة بالطلاق أو الموت:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 229].

﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 9].

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِتْمًا﴾ [البقرة: 182].

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن أمور الحياة الزوجية والأسرية أمور بالغة الأهمية عميقة الجذور ممتدة الأثر عظيمة القدر خطيرة لا يمكن التهاون فيها والتقليل من شأنها. فبمجرد الإحساس بالخوف من وقوع خطر أو سوء في العلاقة يجب المبادرة إلى تصحيح الوضع وعلاجه، وليس الانتظار حتى يقع المحذور ويستفحل أمره والله أعلم. ومن الأدلة أيضاً على أهمية الزواج وأهمية آثاره ونتائجه نجد المولى ﷺ يسمي ما شرعه من

أحكام تخص الحياة الزوجية والأسرية حدود الله . ففي آيات سورة البقرة يقول ﷻ : ﴿الطَّلُقَ مَرَّتَيْنِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِدَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْسِدَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: 229] .

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرْجِعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَاسَادَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 230].

وسماها كذلك آياته ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنُ
وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا
الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ
أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَبَيِّنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَنسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِيحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ
ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنجِدُوا ءَايَةَ اللَّهِ هُرُوءًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 231].

ومن الأدلة أن الله سمى الزواج نعمة كما في الآية السابقة .

ومن الأدلة ختم الآيات بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 231] .

أي كأنه يقول: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وسخطه وانتقامه وقاية فلا تتركبوا في علاقاتكم الزوجية والأسرية ما يوجب عذاب الله وسخطه عليكم .

وآيات مثل: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 232] .

﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِيعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَأْتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 233] .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةً النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ فَهِيمٌ﴾ [البقرة: 235].

تدل على أهمية الزواج وآثاره وأنه أمر خطير عظيم، فليحذر أفراد الأسرة ومن يحيط بهم من ارتكاب محظور يستوجب غضب الله عليهم وسخطه وعذابه، فهو يسمع ويرى ويعلم ما يحصل في الأسرة.

وأحكامه سبحانه وتعالى الخاصة بشؤون الأسرة تصدر عن حكمة بالغة، وهي مشتملة على الطهر والزكاة وما شرعه فيها من أحكام إنما هي لصالح حال الأسرة ولصالح حال المجتمع، وإنما يستجيب لأحكام الله في شؤون الأسرة من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر.

أيها القراء الكرام قولوا لي بعد أن قرأت ما كتبته

لكم في هذه الورقات، ما حكم الذي يخرج عن شرع الله في أحكام الأسرة ويتعدّد حدود الله؟

ولو شئتم لقلتم: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

ولقلتم أيضاً: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 232].

وليس بعد كلام الله كلام لأحد.

صدقتم وأحسنتم ولكن ألا تدعون معي ليرد الله الشاردين عن منهجه وشرعه رداً جميلاً حتى تهناً نفوسنا وتقر أعيننا بأزواجنا وذرياتنا وتسعد بيوتنا وتصلح حياتنا داخل الأسرة وداخل المجتمع، ونحيا حياة طيبة، وننعم بالنعيم المقيم يوم القيامة فندخل الجنة نحن وآبائنا وأزواجنا وذرياتنا بفضل الله ورحمته.

وأخيراً أختتم كلامي عن أهمية الأسرة في هذا الفصل فأقول: انظروا قرائي الكرام الأحبة إلى ما ختم الله سبحانه وتعالى الآية الأولى من الآيات التي تحدثت عن أحكام الأسرة في سورة البقرة فقال: ﴿وَيَبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

وإلى ما ختم الله سبحانه وتعالى به الآية الأخيرة من آيات أحكام الأسرة من السورة نفسها فقال ﷺ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242].

وأراني منساقاً لأسرد لكم ما قاله شيخنا العلامة الإمام محمد أبو زهرة في ذلك. يقول عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة: بهذه الجملة الكريمة السامية ختم الله سبحانه وتعالى الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة وقد ابتدأ بيانها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

وإن ذلك الختام الكريم فيه تصوير لبيان الله سبحانه وتعالى لأحكام الأسرة وشدة عنايته بأمرها، وتوضيح الأسس الصالحة التي تقوم عليها والعدالة والمودة والرحمة التي تربط بين أفرادها، وكيف فصل سبحانه القول فيها تفصيلاً لم يفصله في غيرها من شؤون الدين، فلم يبين الصلاة والزكاة والحج كما بيّن في كتابه الكريم أحكام الأسرة والروابط التي تربط بين أفرادها؛ لأن الأسرة قوام المجتمع الإسلامي الفاضل، فإذا تزلزلت

اضطرب ميزان الاجتماع وتهدمت أركانه⁽¹⁾.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته
وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ونفعنا
بعلومه. هذا وندعو لجميع العلماء العاملين المخلصين
مثل ما دعونا له وإن كنت أرى نفسي لست أهلاً لأن
يلتمس مني الدعاء فإنني أسير الجهل والتقصير ولكن وفاءً
لبعض ما أنا مدين به للعلماء الذين انتفعت بعلومهم
وأفدت منها خيراً كثيراً أدعو لهم ليتولى الله حسن
مكافأتهم آمين.

وإلى الفصل القادم أكون بمعيتكم إخوتي القراء
الكرام، إن شاء الله.

(1) «زهرة التفاسير»، للعلامة محمد أبو زهرة رحمه الله (ج 11 ص 855).